الجزء الأول

تنشئة الطفل المتميّز

obeikandl.com

obeikandl.com

هل يتمتع جميع الأطفال بإمكانيات مميّزة؟

يمكنك المراهنة على صحة ذلك!

فكّر على نحو مختلف! يمكن أن تكون هذه العبارة شعار حملة دعائية ناجحة وملهمة لبرنامج أبل الشهير الخاص بالكومبيوتر. ولكن، على الرغم من مضمونها الذي يركز بشدة على أهمية تميّز الفرد بشخصيته وبروحه وبفكره واختلافه عنهم، إلا أن الأهل والمربين على حد سواء يخشون على ما يبدو الطفل الأصيل المختلف الذي لا يسير على خُطى جيرانه وأترابه من الأطفال.

في معظم الأحوال، ينصب اهتمامنا الشديد على أن يكون أطفالنا جيدين ومنسجمين مع محيطهم، وأن يكونوا محبوبين ويشكلوا جزءاً من النسيج الاجتماعي الذي حولهم. إننا نبرر لهم مشاعرهم هذه لأنهم يعتقدون أن الطفل العادي الذي لا يختلف عن الآخرين، ينخرط بشكل أفضل في مجتمعه، ويكمله وبالتالي فإنه يتفاعل معه بطريقة أفضل، ويقدم له إسهامات أقوى، ويحقق النجاح بشكل أفضل من الطفل الذي يفكر بطريقة مختلفة ومتفرّدة. في كثير من الحالات، يستوعب الطفل العادي المواقف الاجتماعية التي يمر بها، ويتفهم محيطه بطريقة أكثر سهولة وسلاسة. وهذا على الأغلب ليس حال الطفل الذي يمتلك صفات غير مألوفة ومميزة والذي يتمتع بالمقدرة على تقديم إسهامات قيّمة وملهمة لمجتمعه، علاوة على كونه يملك الموهبة والرؤية الخاصة لتغيير العالم بطريقة إيجابية.

الصفات والميزات غير العادية هي حجر الأساس الذي يساعد الطفل على تحقيق ذاته على النحو الأفضل، والذي سيمكنه من لمس النجوم. وتُستقى هذه الخصائص المميزة من طريقة التفكير، ومن الموهبة ومن الشخصية الحيوية الديناميكية، ومن أي عامل آخر يمكن أن يرتقي بالطفل عالياً فوق مستوى المألوف. وهي تجعل حاملها استثناءً عن الجموع ينبض بالحياة والنشاط.

يمكن أن يكون هذا الطفل خجولاً وغير قادر على تطوير مهارات اجتماعية، ولكنه يمتلك طريقة مركبة شديدة التعقيد في فهم الكون واهتماما بالغا به. قد يصفه أقرانه بكلمات مثل «ممل» أو «مضجر» إلا أنه وفي غضون عشرين عاماً سيصبح مخترعاً أو مكتشفاً بشكل ما. كما يمكن أن يكون طفلاً ودوداً ومنفتحاً ومحبوباً وعلى درجة من النضج والتعاطف مع الآخرين بالإضافة إلى مستوى شديد التطور من الحس الاجتماعي، حتى إنك قد تشعر بأن هذا الطفل قادر على إعادة وضع أسس «السلام» وهو ما يزال في السابعة من عمره. وهذا هو - بالتأكيد - قائد أو مؤلف أو محلل المستقبل.

قد يملك أي طفل خصائص وصفات مميزة تجعله يحلق خارج سربه. وهنا يأتي دور الأهل أو المدرسين أو المشرفين أو المربين المتميزين في ملاحظة هذه الصفات وتحديدها، والعمل مع الطفل من أجل إخراجها وتطويرها وفق مهاراته، وفي الحفاظ على شخصية ذلك الطفل المتميزة، وفي مساعدة الطفل كي يكون مكملاً لمجموعته ولرفاق صفه ولمجتمعه.

openkandi.com

يجب علينا أن نشجع عنصر التفرد والتميز هذا لدى جميع الأطفال. في واقع الحال نحن نقوم عادة بمكافأة الأطفال العاديين على كونهم متشابهين وغير مختلفين، وهذا بدوره يشكل مفتاح من هم وما هم عليه. مع ذلك، فإن أولئك الأطفال أيضاً قد يمتلكون صفات وميزات رائعة ومميزة ولكنها لن تتعزز وتبرز ما لم يتم اكتشافها ورعايتها جيداً. وكقاعدة عامة، إلى أن يحين الوقت الذي يصبح فيه الأولاد العاديون جاهزين للدخول إلى الجامعة، فإنهم يبقون ضمن المجموعة المنافسة والمقدّر أنها «صاحبة الحظ الأوفر بالنجاح».

عندما يحين أوان الانتساب إلى الجامعة، لا تعود تلك الصفات التي تساعد هؤلاء الأولاد عادة على النجاح في المرحلة الثانوية كافية. وهنا تبرز الحاجة لما هو أكثر من تلك الصفات، أي الحاجة إلى إثبات الذات بشيء من الخصوصية والتميّز، والحاجة إلى امتلاك أفق أوسع والمزيد من العمق. وفجأة، تبرز هنا الحاجة لتلك المزايا التي أبعدت الطفل الذي يفكر عكس الجماعة عن الأولاد العاديين.

عند إجرائي مقابلة مع عدد من المديرين المسؤولين في عدد من الجامعات المعروفة لمنح القبول الجامعي أكدوا لي جميعهم أن هناك ثلاثة عوامل ضرورية لمنح القبول هي:

- على المتقدم أن يدل على ما يثبت أنه جيد، وأنه شخص متوازن استطاع أن يطوّر إمكانياته وموهبته بنجاح. فعلى الرغم من أن الكثير من الطلاب يملكون سجلاً دراسياً ممتازاً، فإن المتقدم الذي يحدد إمكانياته الخاصة ويثبت أنه عمل على تطويرها والاستفادة منها

هو الذي سيحقق شرط أو معيار الموهبة الملموس وغير الملموس الذي ترغب فيه الكلية.

< تقدّر الكلية أو المؤسسة الأكاديمية مدى «ما يعمله ويقوم به المتقدم بخصوص الأشياء التي يحبها». وهذا توسع للنقطة الأولى، والخطوة الثانية هنا هي العملية. أي أن ما قام به المتقدم عندما اكتشف في طفولته «تميّزه» وما فعله بتلك الموهبة الخام يبقى هو مقياس نجاحه. هذا لا يعني بالطبع أن المديرين يتوقعون قراءة سيرة ذاتية للمتقدم تشبه سيرة أحد النجوم اللامعين في مجال ما، ولكنهم يتطلعون إلى الإنجاز الذي حققه الطالب على الصعيد الشخصي بخصوص الصفة أو الموهبة التي تميّزه والتي سعى لتطويرها منذ طفولته.

< على المتقدم أن يملك الإمكانية اللازمة لتطوير قدراته المستقبلية تماماً كما كان يطورها في السابق. إن الطالب الذي سيحصل على القبول في هذه الكلية هو الذي ستحكم عليه الكلية بأنه سوف «يقوم بتطوير تلك القدرات بما يعود بالخير عليه وعلى من حوله وعلى المجتمع».

أوضح لي أولئك المديرون أيضاً أنه ليست كل مدرسة مناسبة لكل طفل، وأكدوا على أهمية الانتباه إلى اختيار المكان المناسب الذي سيساعد على إخراج أفضل ما بداخل الطالب من قدرات. وقد نصح أحد المسؤولين عن منح القبول في جامعة هارڤارد الأهل بالانتباه إلى قدرات طفلهم وترك المساحة الكافية له لمعرفة ما الذي يحب أن يقوم به، كما أقترح أنه على المعلمين والمربين أن يتعاملوا، قدر الإمكان، مع كل طفل كفرد كائن بذاته.

وهنا تبرز هذه المسألة التي تمثل نوعاً من التحدي، ألا وهي ضرورة أن ننمي ونرعى الصفات المميزة لدى الصغير بشكل إيجابي، في الوقت نفسه الذي يكون منخرطاً فيه ومكملاً لمحيطه التعليمي والاجتماعي، وبهذا تصبح طفولته حقبة رائعة وسحرية لنموه وتطوره.

تقدم لنا السيدة ديبورا هاردي، الرئيسة السابقة لرابطة المستشارين المسؤولين عن مدارس نيويورك، والموجهة التربوية لمدرسة إيرفينغتون في نيويورك، وجهة نظر قيمة حول من وما هو ضروري لنجاح تجربة الطفل التعليمية الكلية، إذ تقول في هذا المجال: «إن العمل مع الأهل والمعلمين والطلاب والإداريين أثناء عملية تعليم الطالب بكاملها أمر مكمل للمحصلة النهائية الإيجابية. وذلك على عكس الحقول والمجالات الأخرى، تعلمت أنه علينا، نحن المشاركين بشكل إيجابي في عملية التعليم، أن نكون ملمين بكل الأمور و «خبراء في كافة الموضوعات». وبناءً على سنوات الخبرة الطويلة لديها، تقدم هنا بعض النصائح العملية للمدرسين والإداريين التربويين والأهل:

للمدرسين: منذ المرحلة الأولى لدخول الطفل إلى المدرسة، أي الحضانة، من الضروري أن تشارك تلميذك بتجاربه في الصف. فالتعلم يحتاج لما هو أبعد من محيط الصف، لذلك فإنك عندما تطلب من التلاميذ أن يشتركوا معك في نشاطات ومحاولات خارجية جماعية مع الآخرين، تعزز بذلك مكان الطفل ضمن المجموعة. كما أنك تضيف الكثير لتقدير الذات المتنوع والجماعي للصف.

يجب ألا تكون الاختبارات التي تعتمد على الذاكرة الأسلوب الوحيد لتقدير النجاح التعليمي للصف، خاصة في الصفوف الأولى والمتوسطة.

obeikandi.com

احرص على تشجيع وجود تنوع في التقدير، ودع الطلاب يظهرون مواهبهم واهتماماتهم من خلال أوراق عملهم أو رسومهم أو من خلال الموسيقى. كما أنه من الأفضل أن تجعل طلابك يشاركون في مناقشة بعض الموضوعات المتعلقة بالمادة وأن يتشاركوا في حل المسائل وفي عمليات التحليل وفي استنباط أفكار ومفاهيم جديدة للصف.

وهناك أمر أساس هو أن على المعلمين أن يعرفوا طلابهم. فمعرفة الطلاب والعمل على جعل صفاتهم الخاصة تكمل شخصية ونسيج الصف يعزز التجربة الفردية والجماعية.

وهم أيضاً بحاجة للوقت كي يتبادلوا الآراء مع بعضهم تلك التي تعزز تعلم الطالب واهتماماته. لأن تبادل الآراء هذا يكسبهم أفكاراً واستراتيجيات ووجهات نظر جديدة.

للإداريين: يحتاج المدرسون لخطة تعليمية قوية وذات رؤية خلاقة. غالباً ما ينسى الإداريون أن عملهم يؤثر على الطالب. على الإداريون وضع خطتهم ورؤيتهم وبعد ذلك التواصل مع المعلمين للتأكد من تطبيق عملهم بشكل جيد وبانسجام فيما بينهم، فأحياناً تكون بعض الأفكار النظرية جيدة لكنها لا تثبت ذلك عند التطبيق العملي. من الجيد العمل مع مستشار المدرسة لتخصيص حصة لمد الطلاب بالمعلومات اللازمة حول حل المشكلات ومناقشة المنهاج واهتمامات الطلاب وتطور النشاطات والمجموعات التي لا تكون موجودة في المدرسة.

للأهل: تقع على عاتق الأهل مهمة تنشئة أولاد أقوياء ومستقلين غير اتكاليين يتمتعون بحس واضح وأكيد بذاتهم. وعليهم أن يكونوا

موجودين دائماً لإرشادهم ودعمهم. إن الأهل الذين يحرصون بشكل زائد على أولادهم يحدون بحرصهم هذا مما يمكن أن يقوم به أولادهم بنجاح.

والثقة هنا عامل أساس. فعلى الأهل أن يثقوا بأولادهم وبأنفسهم وبقيمهم الأبوية. فهذا أمر أساس في تطوير المهارات والاستراتيجيات الأبوية المتينة الضرورية لتنشئة أولاد متوازنين.

تكون ردة فعل الأولاد جيدة عادة تجاه القبول لأنه يعني الحب بالنسبة لهم. على الأهل أن يستمعوا جيداً لأولادهم وأن يتذكروا أن القبول مهم بالنسبة لنا جميعاً. يتأثر سلوك الأطفال بمحيطهم. لذا فإنه على الرغم من كون العلامات ضرورية إلا أن قبول الأولاد يجب أن يبنى لا على أساسها فقط وإنما على طريقة تغلبهم على العقبات وتصديهم للتحديات التي تواجههم.

تؤكد ديبورا هاردي على دور المعلمين المهم، بالإضافة إلى دور الأهل، في تربية وبناء تقدير الذات لدى الطفل. فتشجيع بروز الصفات الشخصية ضمن حدود الصف المفروضة مع تحدي قدرات الطفل أمر بالغ الأهمية. وتماماً كما نقوم بتشجيع الأطفال الاستثنائيين على تطوير مواهبهم وإمكانياتهم ضمن إطار الصف علينا مساعدة الأطفال العاديين أيضاً للتعرف على صفاتهم الخاصة المميزة وتطويرها. فهذا هو الوقت الأنسب لاكتشاف الذات بالنسبة لجميع الأطفال.

كيف يمكن أن يحقق المعلّم التوازن اللازم؟ كيف يمكن له التعرف إلى الاختلافات لدى الطفل وتشجيعها مع المحافظة على انسجام

وتكامل ذلك الطفل مع رفاق صفه؟ هذه في الحقيقة مهمة تحمل الكثير من التحدي للمعلّم، وتتطلب الشخصية المناسبة ذات الحدس السليم والخبرة والمهارة في التدريس من أجل القيام بها بتمكن وعلى أكمل وجه.

من الواضح أن جيل ماكغوجان Gail McGoogan، الحائزة على جائزة ديزني لأفضل مدرس ابتدائي لعام 2003 (وهي جائزة أمريكية سنوية للمعلمين)، كانت تمتلك استراتيجية مبتكرة وملهمة ومدروسة بشكل دقيق لتناسب طلابها المميزين. وفي لقاء أجريته مع السيدة ماكغوجان قالت لي بشكل واضح ومباشر:

لقد رأيت أن جو التعليم الذي لدينا، بالنسبة لطلابي المميزين الذين يبحثون عن طريقة للتعبير عن أنفسهم، يجب أن يتجاوز نطاق جدران الصف الأربعة وأن يشمل التجارب العملية الحياتية. على سبيل المثال، كي تشرح للطلاب كيف كانت حياة المستوطنين الأوائل في هذه المنطقة التي يعيشون فيها الآن، والتي تمتلئ حالياً بالشوارع والأبنية واليافطات اللافتة للنظر، تقمص أنت شخصية مستوطن قديم وخذهم في رحلة على زورق صغير في أحد الأنهار الصغيرة. خذهم في معسكرات تنامون فيها تحت النجوم وشاركهم في الرقص والغناء وسرد الحكايات حول النار التي توقدونها ليلاً. ومن أجل أن يتواصل الطالب مع المجتمع من خلال تقديم خدمات تناسب عمره شجعه على مساعدة العائلات المحتاجة. وبطريقة أو بأخرى، ستضيء شعلة من خلال هذه المشاركة في التجارب الحقيقية ما تلبث أن تنير الدرب لأولئك المفكرين العُمُق والهادئين فيبدعوا ويشعوا بدورهم بطريقتهم الخاصة.

obeikandi.com

سألتها ما إذا كان المعلم الذي يعمل جاهداً لتعزيز التميّز والاختلاف بين الطلاب بحاجة لمحيط أقل انضباطاً ونظاماً للعمل فيه فأجابتني قائلة: «أنا لست متأكدة ما إذا كان يجب على مقاربة التدريس أن تكون ــــ خارجة عن المألوف ــــ ولكن اتباع الأسلوب المألوف بشيء من التوسع والمرونة هو الأجدى. أنا متأكدة من أن الطلاب يتعلمون بشكل أفضل عندما يفهمون المعنى والهدف من وراء ما يتعلموه». إنني أعتقد أن فلسفة السيدة ماكغوجان تدور حول ضرورة بناء بيئة تعمل يداً بيد مع أساليب ومقاربات تعليمية مبتكرة ومناسبة ومدروسة للوصول إلى كافة الطلاب. وهنا لا بد أن أذكر أن أفضل المدرسين الذين درسوا أولادي كانوا أولئك الذين توقعوا منهم الكثير كطلاب وأفراد.

هناك صفة أخرى بالغة الأهمية على المدرس أن يتحلى بها، العدل. أعتقد أن معظمنا صادفنا مدرسا غيّر حياتنا بطريقة أو بأخرى، كمدرّسة الجبر السيدة كارلينو التي غيرت حياتي. في الحقيقة أذكر أن تلك المدرّسة كانت صاحبة السلطة داخل الصف. كان ذلك في أوائل السبعينيات، تلك الفترة التي كان فيها مفهوم النظام الصارم القديم آخذ بالتغيّر وبشكل سريع، فكانت تلك المدرّسة تحيي الطلاب كل صباح عند دخولها الصف بعبارة «صباح الخير» وتجبرنا على أن نرد عليها جميعنا ونحن وقوف بعبارة «صباح الخير يا سيدة كارلينو» وبعد ذلك تأذن لنا بالجلوس. في البداية كنا نضحك ونتغامز على تلك التحية ولكننا اعتدنا عليها فيما بعد وغدت من طبيعة درس السيدة كارلينو وشارة بدء حصة الرياضيات.

كانت تلك المدرّسة عادلة أيضاً. كان هدفها أن نتعلم جميعنا مادة الجبر، برغم قدراتنا واستعدادنا المختلف للمادة. فإذا أحست أننا لم

نفهم موضوعاً ما في الصف. كانت تضع لنا برنامجاً لشرح ما تعسّر علينا فهمه بعد دوام المدرسة كي لا نضطر لطلب المساعدة من أحد. كانت تجلس في صف الرياضيات في الساعة الثالثة وعشر دقائق بانتظار قدوم أي طالب لتساعده وتشرح له أي نقطة مبهمة أو صعبة عليه.

على الأهل أن يتعلموا الكثير. إن كل واحد من أولادي الثلاثة يختلف عن إخوته، وبالتالي فإنني أم مختلفة لكل واحد منهم. فأنا أنظر إلى العالم بشكل مختلف لكل واحد منهم لأن كلاً منهم يرى العالم بعينيه بشكل مختلف عن الآخر. وبما أنني أنا الكبيرة التي أقوم بدور «أحد الوالدين» فإن عليّ أن أنظر إلى عالمهم بعينيّ وبرؤيتي أيضاً، ومن خلال قيمي ومفاهيمي وخططي وأدواتي الخاصة في تربية أبنائي. وهنا، كيف يتعين عليّ أن أقودهم في الاتجاه الأمثل المناسب لهم؟ كيف أعرف من هو أفضل معلّم لهم؟ وكيف أقوم بدوري بالتنسيق مع إدارة المدرسة؟ كيف يمكنني أن أدلهم على طريق يمكّنهم من أن يكونوا أسُلَماء وأقوياء وأن يعزز لديهم الإحساس بالذات والثقة بالنفس؟ إن هذا كله يتحقق من خلال استماعي لأولادي، ومن خلال القوة التي أستمدها من قيمي ومفاهيمي، ومن خلال تعلّمي من تجارب الآخرين، بالإضافة إلى وجود جرعة قوية من الثقة بنفسي كوالدة. ولكن، مع ذلك، يبقى ذلك كله أسهل على القول منه على الفعل.